الفصل الرابع

اخلاقه وتدينه

إن الرجل السوي الكامل هو الذي تكتمل فيه عناصر الرجولة الحقة ، والتدين القوي ، والأخلاق العالية الكريمة ، وبعد النظر ووعي المستقبل ، ولقد كان عمر بن عبد العزيز من هذا الطراز الرفيع الجامع لهذه المعاني ، والتي تبلورت وظهرت في أخلاقه أثناء شبابه وفي ولايته العامة والخاصة على المسلمين ، لم يتغير ولم يتبدل ، فكان بحق مثلاً أعلى للأخلاق الربانية الرضية ، وكان ربانياً بكل معنى الكلمة .

والرباني الموصوف في القران الكريم : هو المتشدد في الدين ، الملتزم طاعة الله ، قال تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون﴾ ولقد أوتي عمر هذه الصفة وهي التخلق بالأخلاق الربانية المتميزة بأن صاحبها يتمسك بالدين ويطيع الله سبحانه ، مهتدياً بمبدأ أساسي أخبرت عنه هذه الآية ، ألا وهو دراسة الكتاب الإلهي وتعلمه وتعليمه لغيره . وهذا يؤكد الصلة الوثقى بين ثقافته الواسعة وتضلعه في العلوم وبين تكوينه الخلقي ، فالعالم والمعلم والمتعلم شأنه كذلك إذا أحسن الاستفادة من علمه وعمل بما علم . ويستنبط من هذه الآية أن التعليم الديني وفهم الإسلام إن لم يكن مصحوباً بالعمل والطاعة ، كان وبالاً على صاحبه ، بل كان كالسراج يضيء للناس

ويحرق نفسه ، ومن ثم كان تكوين عمر على مائدة الإسلام ، قال له رجل : جزاك الله عن الإسلام خيراً ؛ فقال : بل جزى الله الإسلام عني خيراً [1] .

وامتياز أخلاق عمر يتجلى في عدة أمور :

أولها ـ

أن زهده وتقشفه لم يكن عن قلّة وفقر ، وإنما مع توافر مغريات كثيرة ، أهمها السلطة والسيطرة على الأموال العامة ، بل ووجود الثروة الخاصة عن أبيه ، قال مالك بن دينار : يقولون : مالك زاهد ، أي زهد عندي ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها ، فتركها جملة . وقال أبو سليمان الداراني : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني ؛ لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ولا ندري حال أويس ، لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب [2] .

وثانيها ـ

أن إيمانه القوي بالآخرة ، وخشية الله والخوف من شدة الحساب ، وشوقه الى الجنة ، وإيثار الآخرة على الدنيا هو الذي امتاز به في ولايته على الحجاز وفي أثناء خلافته ، وفي مختلف أطوار حياته ، شعاره قول الله تعالى : ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ .

وثالثها ـ

الصرامة الشديدة في اتباع منهج العدل والتزام الحق وتطبيق ذلك على نفسه وأهل بيته وأولاده وأسرته بني أمية وعلى الناس جميعاً العدول منهم وغير العدول ،

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٩

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢ ، ٢٠٨

السائرين مع الجماعة ، أو الخارجين على الأمة ، ممن قادتهم سذاجة الأعراب وسطحية الأفكار والأفهام الى التطرف والغلو في معالجة قضايا الأمة العامة .

وأذكر هنا على سبيل المثال نماذج من أخلاقه ومواقفه الخلقية المشرفة .

خوفه من الله تعالى :

كان عمر من أشد الناس خوفاً من الله تعالى وهيبة له ، وخشية لجنابه ، سواء في السر أو في العلانية ، في واقعه مع نفسه أو فيما بين الناس ، فكثيراً ماكان يقول في خطبه التي ذكرناها في بلاغته : «ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر الله اليوم وخافه ، وباع نافداً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألاترون أنكم في أسلاب الهالكين، وستصير من بعدكم للباقين، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين». وكان يقول «إنما خلقتم للأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار»[1].

وقال له رجل: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئاً بطيناً ، متلوثاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل الأماني [2].

وقال عنه صالح بن كيسان : «ماخبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام» [3]

وكان ينمّي خوفه من الله تعالى ، ويزيد إيمانه به وحبه له بتلاوة القرآن ، فكان يقرأ في المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يطيل القراءة [4]. وذلك حرصاً منه على التذكرة والعظة ، والتدبر والإمعان ، والفهم والامتثال فليس المهم هو التلاوة ، وإنما المطلوب هو العمل ، ولقد كان هذا منهج الصحابة رضوان الله

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩٥ ، ٢٨٧

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٧ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٣

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٣

(٤) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢

عليهم مع القرآن ، لاينتقلون من آية الى أخرى حتى يعي الواحد منهم الآية ، ويمتثل حكمها ، ويعمل بموجبها .

وكان خوفه من الله تعالى بالسؤال عن الأمة أشد من خوفه على أموره الخاصة . ذكرت سابقاً في محادثاته مع زوجته أنه دخلت عليه فاطمة امرأته ، وهو في مصلاّه تسيل دموعه على لحيته ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ألشيء حدث ؟ قال :

يا فاطمة، إني تَقَلَّدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فبكيت [1]

كان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع، ويقال: إنه بكى فوق سطح حتى سال دمعه من الميزاب ، وكان يأكل من العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته [2].

ويظهر أنه كان شديد البكاء ، سخي الدمع ، خوفاً من الله تعالى ، وتقديراً منه للمسؤولية العامة العظمى التي ابتلي بها ، قال سالم الأفطس : كان عمر بن عبد العزيز من ألبس وأعطر الناس ، فلما سُلِّم عليه بإمارة المؤمنين ، وعلم استقرار أمره ، أدخل رأسه بين ركبتيه ، وبكى بكاء شديداً ، فقال الناس : يبكي فرحاً بالخلافة ، ثم رفع رأسه ومسح عينيه ثم قال :

اللهم ارزقني عقلاً ينفعني ، واجعل ما أصير إليه أهم مما يزول عني .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٨ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠١

(٢) البداية والنهاية : ٩/٢٠٩

ثم دخل منزله ، فألقى تلك الثياب عنه ، وغسل ذلك الطيب ، ودعا الحجام ، فأخذ من شعره ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب الى الحسن البصري ، ومطرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير :

سلام عليكما ، فإني أحمد الله إليكما الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله . أما بعد :

فإني أوصيكما بتقوى الله ، فإن من يقولها كثير ، ومن يعمل بها قليل ، فإذا أتاكما كتابي ، فعظاني ولا تزكياني ، والسلام[1] .

الله أكبر !! أمران في هذا الكتاب ، لم نعرف إلا نقيضهما وعكسهما من صنيع غير عمر :

أولهما عدم التجمل بالثياب وإزالة كل آثار الرفاهية والنعمة بعد الخلافة .

وثانيهما ـ طلب التذكير والوعظ من الصالحين ، دون مدح وثناء ، أو تزكية وإطناب في المديح .

ولقد كان بكاؤه معبراً عن مدى خشيته لله تعالى وخوفه من لقائه وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله. قرأ رجل عنده: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ فبكى بكاء شديداً ، ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول كسعيد بن المسيب : اللهم سلِّم سلِّم [2] .

قالت عنه فاطمة بنت عبد الملك زوجته للمغيرة بن حكيم : يا مغيرة، قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ، ولكني لم أر من الناس قط

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٤٤ ومابعدها

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٩

كان أشد خوفاً من ربه من عمر ، كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في مسجده ، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه ، ثم يستيقظ فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع [1] .

وقال عنه عطاء : كان عمر بن عبد العزيز يجمع في كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة [2] .

وقال عنه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان لعمر بن عبد العزيز سفط فيه درّاعة من شعر وغل ، وكان له بيت في جوف بيت يصلي فيه لايدخل فيه أحد ، فإذا كان في آخر الليل ، فتح ذلك السفط ولبس تلك الدراعة ، ووضع الغل في عنقه ، فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر ، ثم يعيده في السفط [3] .

وقال له سليمان حينما وجده تحت شجرة باكياً : ما يبكيك يا أبا حفص ؟ قال : أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة من قدَّم شيئاً وجده ، ولم أقدم شيئاً فلم أجد شيئاً[4] .

وقال له مولاه: رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله، فبكى ، ثم قال : يابني ، إني والله ذكرت الوقوف بين يدي الله عز وجل . ثم غشي عليه ، فلم يفق حتى علا النهار ، قال مولاه : فما رأيته بعد ذلك مبتسماً حتى مات [5] .

وماكان خوفه من ربه إلا لأنه آثر الآخرة على الدنيا ، إيماناً بقوله تعالى : ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ وبقوله سبحانه : ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ أي لهي الحياة الدائمة الباقية الخالدة، واتباعاً لمنهج النبي ﷺ القائل:

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٦٠ ، أخبار عمر للآجري : ص ٨٥

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٨

(٣) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩١

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٧

(٥) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٧

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ، وقد عبر عمر عن هذا كله بقوله [1] :

إن نفسي توّاقة ، لم تُعْطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقت الى ماهو أفضل منه ، فلما أعطيت ما لا شيء فرقه من الدنيا ، تاقت نفسي الى ماهو أفضل منه ـ يعني الجنة .

زهده :

وقد كلفه التزام هذا الموقف بعداً عن كل مظاهر الدنيا وزينتها ونعيمها ، رغم قدرته عليها ، فزهد في الدنيا وتقشف فيها، قال المؤرخون[2] : لم يُحدث عمر بن عبد العزيز منذ وليّ دابّة ولا امرأة ولا جارية حتى لحق بالله .

وقالوا أيضاً : ولم يُر عمر مفترّاً ضاحكاً منذ ولي الخلافة حتى لقي الله . وقالت فاطمة زوجته : ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات ، ويقال : ما اغتسل من جنابة حتى مات .

وقال مكحول : لو حلفت لصدقْتُ ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز[3] .

وتمثل زهده في الإعراض عن مظاهر الخلافة ، وفي عدم جمع المال ، وفي عفته وتقشفه في طعامه ولباسه .

أما إعراضه عن مظاهر الخلافة : فلما قرىء كتاب العهد باسمه عُقِر [4] ، وخلع نفسه من التزام المسلمين ببيعته، قائلاً : «وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم» فصاح المسلمون صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فلِ أمرنا باليمن والبركة» [5] ثم قال : «والله إن هذا الأمر

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦ ، ابن عبد الحكم : ص ٦٣

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٥١ ـ ٥٢

(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٨ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٨

(٤) أي قعد على الأرض .

(٥) صفة الصفوة : ٢/ ٦٤

ماسألته الله قط وقدّم إليه صاحب المراكب ـ مركب الخلافة ، فأبى ، وقال : ائتوني ببغلتي . وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ، ولا يغسله حتى يتسخ جداً ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه . علماً بأن ثمن حلته قبل الخلافة كان ألف دينار ، وبعد الخلافة ثمن قميصه عشرة دراهم .

قال الحكم بن عمر : شهدت عمر بن عبد العزيز حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها ، قال : ابعث بها الى أمصار الشام يبيعونها فيمن يزيد ، واجعل أثمانها في مال الله ، تكفيني بغلتي هذه الشهباء [1] .

ولما رجع من جنازة سليمان سلفه في الخلافة ، قال له مولاه : مالي أراك مغتماً ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه ، غير كاتب إليّ فيه ، ولا طالبه مني[2] .

وأما إعراضه عن المال فيظهر فيما قال عمرو بن مهاجر : كانت نفقة عمر بن عبد العزيز كل يوم درهمين [3] ، وكان يجعل كل يوم درهماً من خاصة ماله في طعام المسلمين ، ثم يأكل معهم [4] . وكانت غلته حين وليّ الخلافة أربعين ألف دينار ، ثم أصبحت حين توفي أربعمائة دينار ، ولو بقي لنقصت . وقال عبدالله بن دينار ، لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً [5] .

وبكى لما استخلف، ثم سأل حماداً: يا أبا فلان ، أتخشى علي ؟ قال : كيف حبُّك للدرهم ؟ قال : لا أحبه ، قال : لاتَخَفْ ، فإن الله سيعينك . وكان عند عمر بن عبد العزيز سرير النبي ﷺ وعصاه وقدح وجفنة ووسادة حشوها ليف

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٨

(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦

(٤) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٠

(٥) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٧ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٨

وقطيفة ورداء ، فكان اذا دخل عليه النفر من قريش قال : هذا ميراث من أكرمكم الله به ونصركم به ، وأعزكم به ، وفعل وفعل [1] .

وسار بسياسته المالية هذه في الأمة ، فأقل العطاء وألجأ الناس الى العمل الخاص أحياناً، دخل عَنْبَسةبن سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا، فمنعتَنَاها ، ولي عيال وضيّعة ، أفتأذن لي أن أخرج الى ضيعتي ، لما يصلح عيالي ؟

فقال عمر : أحبُّكم من كفانا مؤنته ، ثم قال له : أكثر ذكر الموت ، فإن كنت في ضيق من العيش ، وسّعه عليك ، وإن كنت في سَعَة من العيش ضيقه عليك [2] . وانسجاماً مع هذه السياسة الاقتصادية المالية كان عمر يقتّر على نفسه ، ولكنه كان يوسع على العمال ، فيعطي الواحد منهم ثلاثمائة دينار ، فيسأل : ولم ذلك ؟ قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة [3] .

وبلغ به الأمر أنْ رد حلي زوجته ـ كما عرفنا ـ إلى بيت المال ، ثم رفضت رحمها الله استرداده بعد وفاته [4] ، وخرج من ماله ورده في مال المسلمين ، وقال : ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء[5]، فإني عمدت إلى أرض بَراح [6] ، ليس فيها لأحد من المسلم ضربة سوط ، فعملتها من صُلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين [7] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٢

(٣) ابن عبد الحكم : ص ٤٦

(٤) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٣ ، ابن عبد الحكم : ص ٦٢

(٥) السويداء : أرض كان يملكها عمر على بعد ليلتين من المدينة على طريق الشام ، واستنبط فيها من عطائه عين ماء ، وله فيها قصر مبني ، وقد أبقاها مع خيبر ، لأنه اطمأن إلى أن كلاً منهما حلال خالص ليس فيه أية شبهة ، وكان يأكل من غلتها وينفق ما يزيد عن الضرورة .

(٦) البراح : المتسع من الأرض ، لا شجر فيه ولا بناء .

(٧) ابن عبد الحكم : ص ٤٧

وكـان طعامه العدس ، دخل أبو أميـة الخصي غلامه على مولاته ، فغدّته عدساً ، فقال : كل يوم عدس ، قالت : يابنيّ ، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين [1] .

ودخل على امرأته ، فقال : يافاطمـة ، عنـدك درهـم أشتـري به عنبـاً ؟ فقالت : لا ، ثم قالت : وأنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنباً ؟ قال : هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً في جهنم[2] .

وقال لمولاه مزاحم : إني قد اشتهيت الحج ، فهـل عنـدك شيء ؟ قال : بضعـة عشر دينـاراً. قال: وماتقـع منـي ؟ ثم مكث قليلاً ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين تجهّز ، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان ، قال : اجعلها في بيت المال ، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها .

قال مزاحم : فلما رأى عمر ثِقَل ذلك علي قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعتُه لله ، فإن لي نفساً توّاقة ، لم تَتُق إلى منزلة ، فنالتها إلا تاقت إلى ماهي أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت الى الجنة [3] .

وكان يرفض أن يخصص بطعام خاص، نزل يوماً ديراً ، فمرت به أطباق ، فقال: ما هذه ؟ قيل له: صاحب الدير يطعم الناس ، فجاءك بطبـق فيه فستق ولوز ، فقال عمر : تلك الأطباق مثل هذا ؟ قال : لا ، قال : خذ طعامك[4] .

ودخل عمر على بناته ليلة ، فسلّم عليهن ، فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن، ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة : ما شأنهن ؟ قالت : إنـه لم يكن

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٤ حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٩

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٤ ومابعدها ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٩

(٣) ابن عبد الحكم : ص ٦٢

(٤) ابن عبد الحكم : ص ٥٧

عندهن شيء يتعشّينه إلا عدس وبصل ، فكرهن أن تَشَمَّ ذلك من أفواههن ، فبكى عمر ، ثم قال لهن : يا بناتي ما ينفعكن أن تعشّين الألوان ، ويُمَرّ بأبيكن إلى النار ، فبكين حتى علت أصواتهن ، ثم انصرف[1] .

أما عمر : فقد نحل جسده بعد الخلافة ، حتى إنه رآه راء في الطواف فقال : لو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت ![2] .

وأما لباسه حال الخلافة : فكان في غاية البساطة، ولم يكن له سوى ثوب واحد ، حتى إنه في اليوم الذي مات فيه ، طلب مسلمة من أخته فاطمة تغيير ثوب عمر ، فسكتت ، ثم كرر القول ، فقالت : والله ماله قميص غيره . وقال لها في رواية أخرى : ناوليني قميصاً سوى هذا ، حتى نُلبسه أمير المؤمنين ، فإن الناس يدخلون عليه ، فقال عمر : دعها يا مسلمة ، فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذي ترى عليه[3] .

وصلى عمر بالناس الجمعة ، وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس مَلياً ، ثم رفع رأسه ، فقال :

إن أفضل القصد عند الجدَة، وأفضل العفو عند القدرة[4] . وأبطأ يوماً عن الجمعة قليلاً ، فعوتب في ذلك ، فقال : إنما انتظرت قميصي ، غسلته ، أن يجف [5] .

وأما دار عمر : فكانت عادية ، فلم يبن لنفسه قصراً منيفاً جمّله بالزخارف ، وإنما اكتفى بدار متواضعة ، حتى إنه كانت له مِرْقاتان يرقى عليهما من صحن داره

---

(١) المرجع والمكان السابق .

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٧ ، ابن عبد الحكم : ص ٥٥ ، ١٤٤

(٣) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٨

(٤) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٥ ،حلية الأولياء : ٥/ ٢٦١ ، والجدة : السعة من المال والخير .

(٥) ابن عبد الحكم : ص ٥٠

إلى بيته ، فتهدمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهل بيته ، فلما جاء عمر ونظر إليها ، سأل : من صنع هذا ؟ قالوا : فلان ، قال : علي به ، فلما جاء ، قال له عمر :

ويحك ، أنَفِسْت على عمر أن يخرج من الدنيا ، ولم يضع لبنة على لبنة ؟ والله ، لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها إلى ماكانت عليه [1] .

ودخلت امرأة على فاطمة زوجة عمر ، وهي جالسة في بيتها وفي يدها قطن تعالجه ، فلما جلست المرأة ، رفعت بصرها ، فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرِب .

فقالت لها فاطمة : إنما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

ثم أقبل عمر حتى دخل الدار ، فمال إلى بئر في ناحية الدار ، فانتزع منها دلاء صبَّها على طين كان بحضرةالبيت ـ وهو يكثر النظر إلى فاطمة ـ فقالت لها المرأة : استتري من هذا الطيَّان ، فإني أراه يديم النظر إليك ، فقالت : ليس هو بطيان ، هو أمير المؤمنين [2] .

أجل! إنه أهمل إصلاح بيته إيثاراً للآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، وزهداً وتقشفاً ، وحرصاً على إصلاح أمور الرعية ، وشؤون الناس ، وبعداً عن توجيه أي نقد أو إيقاع في شبهة أمام أسرته بني أمية ، وأمام بقية الناس ، وهو في ذلك راض مطمئن غير ساخط ، كما عبر عنه خادمه الذي كان يسحب برذون أمير المؤمنين ، فرآه عمر ، فقال له : كيف حال الناس ؟ فقال الخادم : كل الناس في راحة ، إلا أنت وأنا وهذا البرذون .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٥٤

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٩

صبره وكلامه :

لقد أدى به الزهد الى الصبر ، والصبر والزهد عادة حليفان ، قال عمر : الرضا قليل ، والصبر مَعْقِل المؤمن[1] . وكان عمر يقل الكلام ويخشى شر اللسان ، فيقول : «إنه ليمنعني من كثير الكلام قلة المباهاة»[2] وكان اذا أملى على كتّابه قال : «اللهم إني أعوذ بك من شر لساني»[3] وكان يحسن الظن بالناس فيقول : إذا سمعت كلمة من امرىء مسلم ، فلا تحملها على شيء من الشر ، ما وجدت لها محملاً من الخير[4] .

تواضعه :

أدى به الزهد أيضاً إلى التواضع، فإن شرط الزهد الحقيقي هو التواضع لله تعالى ، ناداه رجل ، فقال : يا خليفة الله في الأرض ، فقال له عمر : مَهْ ، إني لما وُلدت اختار لي أهلي اسماً ، فسمّوني عمر ، فلو ناديتني يا عمر ، أجبتك ، فلما كبرت اخترت لنفسي الكُنى ، فكُنيت بأبي حفص ، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك ، فلما وليتموني أموركم سميتموني أمير المؤمنين ، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك . وأما خليفة الله في الأرض ، فلست كذلك ، ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهُه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾[5] .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٣١

(٢) أخبار عمر للآجري : ص ٨٤

(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٢

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٣٩

(٥) ابن عبد الحكم : ص ٥٤

وكان عمر يتقدم الى الحرس إذاخرج عليهم الا يقوموا إليه ؛ويقول : لا تبتدئوني بالسلام ، إنما السلام علينا لكم [1] .

ولما وَلي الخلافة ، قام الناس بين يديه ، فقال: يا معشر الناس ، إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض، وسن سنناً ، من أخذ بها لحِق ، ومن تركها مُحِق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس :

يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى مالانهتدي إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغتب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو في حَرَج من صحبتنا والدخول علينا [2] .

وكان عمر يكره استخدام الضيف ويخدمه بنفسه ، ومن أقواله المشهورة في ذلك : «ليس من المروءة استخدام الضيف» وكان يصلح سراجه بنفسه أمام الضيوف ، ويقول : وما ضرني ؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز [3] .

قناعته :

الزهد يولد في النفس حب القناعة والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا، فكان عمر قانعاً راضياً بكل أوضاعه المعيشية، يقال: إنه كان يلبس تحت ثيابه مِسْحاً غليظاً من شَعَر ، ويضع في رقبته غُلاًّ إذا قام يصلي من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه ، فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنونه مالاً أو جوهراً من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك المكان ، فإذا فيه غل ومسح [4] .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٤١

(٢) المرجع السابق : ص ٤٠-٤١ ، البداية والنهاية : ٩/ ١٩٨

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٣ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٨ ، ابن عبد الحكم : ص ٤٦

(٤) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٩

قيل لعمر بن عبد العزيز : لو اتخذت حرَساً واحترزت في طعامك وشرابك ؟ فقال : اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون يوم القيامة ، فلا تؤمّن خوفي [1] .

وكان يوصي الناس بالقناعة في طلب الرزق والرضا بما ييسر الله تعالى، فيقول في خطبه : «اتقوا الله أيها الناس ، وأجملوا في الطلب ، فإنه إن كان لأحد رزق في رأس جبل أوحضيض أرض ، يأته[2] .

وكان عمر يعتبر القناعة رأس التربية الناجحة ، فكان يوصي بتعليم الأبناء الفقه الأكبر ، قيل له : وما الفقه الأكبر ؟ قال : القناعة وكفّ الأذى[3] .

مواقفه الخلقية :

كان عمر يتميز بالجرأة والهيبة والصراحة في القول والجهر بالحق، لايخاف في الله لومة لائم ، ويكره نقض العهد ، وينفر من الكذب في مواجهة الأمور ، ويتصدى لمعالجتها بصرامة وجدّية وثقة بالنفس ، وقد عرف عنه ذلك في شبابه مع الخلفاء الذين سبقوه ، وكانت له معهم مواقف بارزة ، خصوصاً مع الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ، من هذه المواقف ما يأتي :

- عزم الوليد على أن يخلع أخاه سليمان من العهد بالخلافة ، وأن يعهد الى ولده ، فأطاعه كثيرمن الأشراف طوعاً وكرهاً فامتنع عمر بن عبد العزيز ، وقال : لسليمان في أعناقنا بيعة[4] . إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة ، فكيف نخلعه ونتركك ؟! وصمم على قوله فطينّ عليه الوليد [5] ، ثم شُفِعَ فيه بعد ثلاث ، فأدركوه وقد مالت عنقه .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤١

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤١

(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٣

(٤) تاريخ الخلفاء : ص ٢٢٩ ومابعدها

(٥) أي أدخله حجرة ، وسد جميع منافذها بالطين ، يريد أن يميته جوعاً واختناقاً .

ـ وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة ، فقال له سليمان في جملة الكلام: كذبت ، فقال: تقول : كذبت ، والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله. أو ما كذبت منذ علمت أن الكذب شَيْنٌ على أهله . ثم هجره عمر ، وعزم على الرحيل الى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه ، فصالحه ، وقال له : ماعرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي [1] .

وكان سليمان يقول : «والله ما كاد يغيب عني ابن عبد العزيز ، فما أجد أحداً يَنْقَه عني شيئاً ، ولا أنقهه منه[2] .

ـ أُتي سليمان بحروري مستقتل من الخوارج ، فقال له سليمان : هيه ؟ قال: إنه نزع لحييك يا فاسق ابن الفاسق . فقال سليمان: علي بعمر بن عبد العزيز، فلما أتاه أعاد الحروري قوله ، فقال سليمان لعمر: ماذا ترى عليه يا أبا حفص ؟ فسكت عمر ، فقال : عزمت عليك لتخبرني ماذا ترى عليه ؟

قال : أرى عليه أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك .

فقال سليمان : ليس إلا ذاك ؟ فأمر به ، فضربت عنقه [3] .

وهذا الموقف من عمر ؛ لأنه كان ينهى سليمان عن قتل الحرورية (الخوارج) ويأخذ بمبدأ المساواة المطلقة ، فلم يفرق بين الخليفة وبين الحروري ، ثم إن عمر يعلم سلفاً رأي سليمان في قتل الحرورية ، فلم يشأ أن يصادم رأيه أول الأمر ، فاعتصم بالسكوت ، ولم يشأ أن يناقض رأيه أي عمر في عدم قتل الحرورية ، فلم يحكم بقتله . وكان هذا الموقف نفسه قد اتخذه عمر مع الوليد حينما سأله ، فيمن يسب الخلفاء أيقتل[4] ؟

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٦ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٢ ، ابن عبد الحكم : ص ٢٧ ـ ٢٨ ، ١١٩

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٢٠ ، في القاموس : نقه الحديث : فهمه .

(٣) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٩

(٤) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٥

ـ ودخل عمر على سليمان بن عبد الملك في خلافته ، وعنده ابنه أيوب ، وهو يومئذ ولي عهده ، قد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله !! وأين كتاب الله !

فقال سليمان : ياغلام ،اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك .

فقال له عمر : لكأنك أرسلت الى المصحف !

قال أيوب بن سليمان : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ثم لايشعر حتى يفارقه رأسه .

فقال له عمر : إذا أفضى الأمر اليك والى مثلك ، فما يدخل على هؤلاء أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا .

فقال سليمان لابنه أيوب : مَهْ ، لأبي حفص تقول هذا ؟

قال عمر : والله لئن كان جهل علينا يا أمير المؤمنين ، ماحَلُمنا عنه[1]

هذا موقف آخر يدل على ثقة عمر بنفسه ، واعتزازه بكرامته ، ونصحه المخلص للخليفة سليمان بضرورة التزام القرآن ، وإنذاره بأن الإعراض عن أحكام الله تعالى فيه تهديد للإسلام نفسه ، وزعزعة لعرش الخليفة.

ـ وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة ، فأعطى بها مالاً عظيماً ، فقال لعمر بن عبد العزيز : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟ قال : رأيتك زدت أهل الغنى غنى ، وتركت أهل الفقر بفقرهم[2] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٠ ومابعدها

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٣١

وهذا يدل على أن الخلفاء يحرصون في العطاء على ما يحقق لهم الولاء وتبعة الناس ، أما عمر فسياسته الراشدية ونظرته الإسلامية الانسانية تأبى عليه إلا الحرص على تحقيق الرفاه للجميع ، وإعانة الفقراء والضعفاء ، ليساووا الأغنياء .

ـ ووقف سليمان وعمر بعرفة ، ورأى سليمان كثرة الناس ، فقال له عمر : هؤلاء رعيتك اليوم ، وأنت مسؤول عنهم غداً .

وفي رواية : وهم خصماؤك يوم القيامة .
فبكى سليمان ، وقال : بالله نستعين [1] .

ـ أقبل سليمان بن عبد الملك ـ وهو أمير المؤمنين ـ ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والبغال والجمال والأثقال والرجال ، فقال سليمان: ما تقول ياعمر في هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسؤول عن ذلك كله .

ولما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ، ونعب نعبة ، فقال له سليمان : ماهذا ياعمر ؟ فقال : لا أدري ، فقال : ما ظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يذهب بها ؟

فقال له سليمان : ما أعجبك؟ فقال عمر : أعْجَبُ ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن اليها [2] .

هذان موقفان آخران يدلان على إخلاص عمر في نصح ابن عمه سليمان ، محذراً له من المسؤولية الثقيلة عن أحوال الرعية جميعهم ، ومن الاغترار بالدنيا وزخارفها وسلطانها .

ـ واجتمع بنو مروان الى باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لابنه عبد الملك : قل لأبيك : إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ، ويعرف لنا موضعنا ، وإن

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٥ ومابعدها ، ابن عبد الحكم : ص ١٥١
(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٥

أباك قد حرمنا ما في يديه، فدخل على أبيه فأخبره ، فقال لهم : إن أبي يقول لكم : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [1] .

هذا الموقف الحساس الذي ألَّب بني مروان على عمر وأتعبه تعباً شديداً موقف صادر من شعوره المرهف بخطورة السؤال والحساب أمام الله تعالى ، بإنصاف الرعية ، والعطاء بحق ، والبعد عن محاباة الأقارب الذي ربما يعرضه لنقد شديد من باقي المسلمين .

ـ ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، جعل عمر يثني عليه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، لو بقي كنت تعهد إليه ؟ قال : لا ، قال : ولم وأنت تثني عليه ؟ قال :

أخاف أن يكون زين في عيني منه ما زين في عين الوالد من ولده[2] .

ـ وكان عمر قد عقد العزم ، وصمم النية على فعل الخير وإقامة العدل قبل استخلافه ، فأعلن أمام الخليفة سليمان عدم الاستئثار بالهدايا ، وقسمتها بين الناس ، قال يعقوب بن عبد الرحمن الزهري : لما قُدِم بالنيروز والمِهْرجان على سليمان بن عبد الملك ـ وهو خليفة ـ فصُبَّت له تلك الهدايا في آنية الذهب وصنوف الهدايا ، قال : فكلما مر بعمر صنف منها ، قال له سليمان : كيف هذا يا ابن عبد العزيز ؟

قال: يا أمير المؤمنين، إنما هو متاع الحياة الدنيا ، قال له سليمان : فآلله لو وَليته ما أنت صانع فيه؟ قال: اللهم أقسمُه حتى لا يبقى منه شيء. قال : اللهم اشهد . فجعل يمرّ به على شيء شيء ، ويقول له هذه المقالة ، ويقول له عمر : اللهم أقسمُه حتى لايبقى منه شيء ، قال سليمان : اللهم اشهد حتى فرغ [3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٨

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٩

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١١٨ ـ ١١٩

- وكان عمر يكره سماع المديح لشخصه، دخل عليه رجل، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين ، كما قال الشاعر :

وإذا الدرُّ زانَ حسن وجوه كان للدر حسنُ وجهك زينا

فأعرض عنه عمر [1] .

وهذا موقف نبوي ، فلقد كره النبي ﷺ المدح في الوجه ، ففي حديث متفق عليه بين البخاري ومسلم ، رواه أبو موسى رضي الله عنه قال : «سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويُطريه [2] في المدح ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل» . وروى مسلم عن المقداد رضي الله عنه أن رجلاً جعل يمدح عثمان رضي الله عنه ، فعمِد المقداد ، فجثا على رُكبتيه ، فجعل يحثو في وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ما شأنك؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيتم المداحين ، فاحثوا في وجوههم التراب» .

- ومن مواقف عمر الشهيرة أنه كان يأذن بدخول المظلومين عليه بغير إذن ، خطب مرة في الغرباء فقال: يا أيها الناس الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجالاً لا أقول : هم خياركم ، ولكنهم خير ممن هو شر منهم ، ألا فمن ظلمه إمامه مَظْلمة فلا إذن لي له علي ، ومن لا فلا أرينَّه ، ألا ، وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال ، فإن ضننت به عنكم ، إني إذن لضنين ، والله لولا أن أنْعَشَ سنة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فُواقاً [3] .

وكان إذا أراد صرف الناس عنه قال : «نعم إذا شئتم ، رحمكم الله» ، ولا يأمر أحداً يقيم الناس [4] .

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٣ ، حلية الأولياء : ٥/ ٣٢٩

(٢) الإطراء : المبالغة في المدح .

(٣) ابن عبد الحكم : ص ٤٢-٤٣

(٤) المرجع السابق : ص ٥١

ـ وكان عمر يتعهد مسلمة بن عبد الملك بالموعظة ، ويتلطف بنصحه وعظته ، دعاه عمر مرة على طعام ، فقدم إليه العدس حتى كاد يشبع ، ثم قدم له طعاماً طيباً ، وقال له : كل ، قال مسلمة : قد شبعت ،ما فيّ فضل ، قال له عمر :

فكيف بالسرف في الطعام ، والتقحُّم في النار ، وهذا يجزي عنه . فقصر مسلمة عما كان يكون عليه [1] .

وقال مسلمة : دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه ، فلا يدخل عليه أحد ، فجاءت جارية بطبق تمر صيحاني ـ وكان يعجبه التمر ـ فرفع بكفيه فقال: يا مسلمة ، أترى رجلاً لو أكل هذا ، ثم شرب عليه من الماء ـ فإن الماء على التمر يطيب ـ أكان يجزيه إلى الليل ؟ فقلت : لا أدري ، فرفع أكثر منه فقال : فهذا ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي ألا يذوق طعاماً غيره ، قال : فعلامَ تدخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعت مني موعظة ما وقعت مني هذه[2] .

ـ وسياسة عمر في الحكم : الحزم في الأمور البادية الحق ، والتوسط في الأخذ والعطاء ، فكان لا يؤخر عمل اليوم للغد ، قائلاً : فَدَحني عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين [3] ؟

ويقول مخاطباً ابنه عبد الملك : أي بُنيَّ ، إنك على حسن قَسْم الله لك ، وفيك بعض رأي أهل الحداثة ، والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين ، إلا ومعه طرف من الدنيا ، أستلين به قلوبهم ، خوف أن ينخرق علي منهم مالا طاقة لي به [4] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥١

(٢) المرجع السابق : ص ١٥٧

(٣) المرجع السابق : ص ٥٧

(٤) ابن عبد الحكم : ص ٦٠

ويوصي عمر ولاته بالاعتدال ، فلما ولى عمرو بن قيس السكوني الصائفة ، قال : اقبل من مُحْسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، ولا تكن في أولهم فتقتل ، ولا في آخرهم فتفشل ، ولكن كن وَسْطاً حيث يُرى مكانك ، ويسمع صوتك [1] .

ولكنه كان يحاسب المقصر والمسيء ، فيقول : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور[2] !!

وكتب الى عدي بن أرطاة ، حينما بلغه عنه ما يكره: أما بعد ، فإني غرني بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت العلانية ، فأحسنا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون [3] .

وقال يحيى الغساني : لما ولّاني عمر بن عبد العزيز الموصل ، قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقباً ، فكتبت إليه أعلمه حال البلد ، وأسأله : آخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة ، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب إليَّ أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . قال يحيى : فعلت ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقباً[4] .

ـ ومن جهة أخرى كانت صرامة عمر وشدته على نفسه ومحاسبة نفسه أشد من محاسبة غيره ، وله مواقف شهيرة نادرة في هذا المجال ، منها :

أرسل له أمير الأردُنّ سلّتي رطب ، فقال : علام جيء به، قالوا : على دواب البريد ، قال : فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٢

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٦

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٦

(٤) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧

فبيعوهما ، واجعلوا ثمنها في علف دواب البريد ، فغمز ابن أخيه الرسول ، وقال له : اذهب ، فإذا قامتا على ثمن فخذهما لي ، فأخرجتا الى السوق ، فبلغتا أربعة عشر درهما ، فجاء بهما الى ابن أخيه ، فأعطاه ثمنهما ، وقال : اذهب بهذه الواحدة الى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه واحدة ، فقال : ما هذا ؟ قلت : اشتراهما فلان ابن أخيك ، فبعث إليك بهذه ، وحبس لنفسه الأخرى ، قال : الآن طاب لي أكله [1] .

وذكرت سابقاً أنه دخل عمر على امرأته يوماً ، فسألها أن تقرضه درهما أو فلوساً يشترى له بها عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً ؟ فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً في نار جهنم [2] .

وبعث يوماً غلامه ليشوي له لحمة ، فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : في المطبخ ، فقال : في مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم ، فقال : كلها فإني لم أرزقها ، هي رزقك .

وسخنوا له الماء في المطبخ العام ، فرد بدل ذلك بدرهم حطباً [3] .

وكان يعجبه أن يتأدم بالعسل ، فطلب من أهله يوماً عسلاً ، فلم يكن عنده ، فأتوه بعد ذلك بعسل ، فأكل منه وأعجبه ، فقال لأهله : من أين لكم هذا ؟ قالت امرأته: بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد ، فاشتراه لي ، فقال : أقسمت عليك لما أتيتني به ، فأتته بعُكة فيها عسل ، فباعها فيمن يزيد ، وردّ عليها رأس مالها ، وألقى بقيته في بيت مال المسلمين ، وقال : أنصبت دواب المسلمين في شهوة عمر [4] ؟

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٥٤

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢

(٣) المرجع والمكان السابق ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٩١

(٤) أخبار عمر للآجري: ص ٥٤

قيل له : قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ، فقال عمر : هو لرسول الله ﷺ هدية ، وهو لنا رشوة ، ولا حاجة لي به [1] .

قال عمرو بن مهاجر : كان عمر يسرج عليه الشمعة ،ما كان في حوائج المسلمين ، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ، ثم أسرج عليه سراجه [2] .

قصة الشمعة والسراج :

وفد على عمر بن عبد العزيز بريد من بعض الآفاق ، فانتهى الى باب عمر ليلاً ، فقرع الباب ، فخرج إليه البواب ، فقال : أعلم أمير المؤمنين أن بالباب رسولاً من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد وقال : ائذن له ، فدخل الرسول ، فدعا عمر بشمعة غليظة ، فأججت ناراً ، وأجلس الرسول وجلس عمر .

فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذي حق حقه ، وهل له شاكٍ ؟ وهل ظلم أحداً ؟

فأنبأه بجميع ماعلم الرسول من أمر تلك المملكة ، فلم يدع شيئاً إلا أنبأه به ، كل ذلك يسأله ، فيحفي (يلح) السؤال ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته ، قال له :

يا أمير المؤمنين ، كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ، ومن تُعْنى بشأنه ؟

فنفخ عمر الشمعة ، فأطفأها بنفخته ، وقال :يا غلام، علي بسراج فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء ، فقال : سل عما أحببت .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٥٦ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧ ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٧

فسأله عن حاله ، فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته . فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها ، وقال :

يا أمير المؤمنين ، رأيتك فعلت ما رأيتك فعلت مثله ! قال : وما هو ؟

قال : إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك .

فقال: يا عبد الله، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنتُ أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقِد بين يديَّ فيما يصلحهم ، وهي لهم ، فلما صرت لشأني ، وأمر عيالي ونفسي ، أطفأت نار المسلمين [1] .

هذه نماذج من أخلاق عمر ، وقد مرّ بنا غيرها ، وسأذكر إن شاء الله نماذج أخرى منها ، وهي كلها قبس من أخلاق الإسلام وأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام التي ربى عليها أصحابه الكرام ، فكانوا أسوة حسنة وقدوة طيبة عالية للأجيال المتلاحقة ، فليس العجب من هذه الأخلاق إذاً ، وإنما أصبح العجب من توافر القدرة الشخصية لإنسان ما على ضبط نفسه بها والالتزام الدقيق بالتحلي بها ، والاتصاف بخصالها ، والاستمرار عليها في وقت يملك فيه الحاكم كعمر كل القوى والسلطات للانصراف عنها ، والتأويل في التغاضي عنها ، والاعتذار السهل في إغفالها .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٥٥ ومابعدها .